# أبناء السبيل

بقلم الأستاذ عبد الحميد ابراهيم صالح

لا أريد أن أسهب فى وصف هذه البأساء التى يعانيها أولئك المشردون فى نسبين ، ولا استدر دموع القراء حزنا على حال أولئك المساكين ، المحرومين من المأوى ومن الطعام واللباس ، ومن حنان الآباء والأمهات ، المطاردين فى الليل وفى النهار من رجال البوليس ، تعمل عصيهم فى أبدانهم دون رأفة ولا شفقة ، وقد نسوا أن أولئك الضعاف هم من أبناء الوطن ومن فلذات كبده ، وأنهم بهذه القسوة يدفعون غرائز الشر فى نفوسهم ، ويسوقونهم الى حياة كلها ضلال ، وكلها عبث وإجرام .

لندع هذا الرثاء لحالهم ، لنفكر فى إصلاحهم وردهم الى البيئة الطيبة ، ومحاولة الانتفاع بهم ليكونوا أعضاء عاملين فى هذا المجموع المصرى ، ولا يكونوا داء تستشرى عدواه ويمتد الى سواهم أذاه .

ولنطرح الاعتماد على قانون الأحداث ، وما يفرضه من عقوبات على المشردين ، فليس أحدهم بالشدة ولا جلدهم ولا زجهم فى غيابة السجن بعلاج لحالهم ولا فيه أصلاح لنفوسهم أو عقولهم ، وما ينبغى لنا أن نعتمد على القهر فى كل شىء ، ولا سبيل أقوم من حسن توجيه المنوطين بتعهد أولئك الأحداث ، وتلقينهم ( أى المنوطين ) تعاليم رشيدة وخططا قويمة للتربية والتهذيب ، وأولئك منوطون هم الذين يجب أن يعاقبهم القانون اذا قصروا فى العناية بمن فى عهدتهم من الأطفال ، أو حرموهم من الرعاية الواجبة .

ولنا أسوة حسنة فى الممالك المتحضرة التى انتبهت الى تكاثر عدد المشردين و ستفحال خطرهم الى الحد الذى يضر بسمعة الدولة كلها ، فسنت القوانين المرشدة لأولياء أمرهم والمسئولين عنهم ، أما من لا أهل لهم فقد كفلتهم الحكومة ، وجعلت تؤويهم وتهذبهم وتدربهم على الصناعات والزراعات ، وعلى خدمة العسكرية وغيرها من الأعمال النافعة .

وعلينا أول الأمر ، أن نتعرف أسباب التشرد على ضوء التجارب والمشاهدات .

السبب الأول — وهو من البديهيات — الفقر وضيق ميادين العمل والارتزاق ، مع تزايد السكان وارتفاع مستوى الحياة العامة ومطالبها كل يوم ، وفى هذا الإجمال ما يغنى مؤقتا عن تفصيل أسباب الفقر فان شرحه يطول . ولكن آثار الفقر ومظاهره المؤلمة قد أصبحت من الكثرة والشيوع بحيث لا تخفى على أحد ، فالفلاح الذى يكدح ولا يصادف

إلا القليل من الرزق ، والساعى أو الخادم الذى يتقاضى قروشا ويعول سبعة من الأطفال أو ثمانية ، ولا يعطى علاوات تماشى تزايد تبعاته ، ونمو مسئولياته ، والعاطل الذى تزوج ورزقه غير مكفول وحياته غير مستقرة ، كل أولئك وأمثالهم ، ماذا يصنعون فى سبيل رعاية أطفالهم ؟ وكيف يقومون بإطالبهم من طعام ولباس وتعليم ، اداموا مكدودين أو محرومين ؟

كثير من أولئك يلجأون الى إرسال بنيهم وبناتهم خدما فى البيوت ، فان لم يوفقوا تركوهم فى الطريق يلتمسون قوتهم بأنفسهم ، فهم بعد ذلك اما متسولون وإما مجرمون مادام لا بد لهم من طعام ، ولقد استعصى عليهم حلالا فما لهم لا يلتمسونه حراما ؟ وهم على الحالين لا مأوى لهم إلا فضاء الشارع أو ضيق السجن ، ولا خير فيهم لأنفسهم ولا للمجتمع .

ولنضف الى الفقر أسبابا أخرى لتشرد الأطفال ، أهمها الجهل ، ثم فوضى الزواج والطلاق .

فمن مظاهر الجهل أن يضطر الرجل بولده على الجيش فيقترض له البدل النقدى العسكرى وقد يبيع لهذا الغرض أثاث بيته وحلى امرأته ، ويستبق ابنه الشاب ثم يزوجه فتصير الأسرة أسرتين ، وعدد الأطفال عددين ، فلا بد من العجز عن إعالة نفر منهم ؛ ولا عاصم لهذا النفر من التشرد ؛ وما وراء التشرد من فساد وإفساد .

ومن نكبات الجهل ، سوء التربية فى البيت ، بأن يقسو الآباء فى تأديب أبنائهم ويأخذوهم بالعصا تلهب أبدانهم ، أو بالعمل الشاق فى الحقل وغيره ، وأجسامهم لا تزال غضة ضعيفة ، فيتبرم الولد بهذه الحياة المضنية الذليلة ، ويفر من البيت إلى الشارع التماسا للحرية وللرحمة ، باذلا أقصى جهده لكيلا يعثر عليه أبواه ، وإذا هو بعد ذلك الشريد الهائم على وجهه ، المستهدف لما وصفنا من ضياع وسوء حال .

ومن الجهل أيضا ، الإسراف فى الرأفة بالطفل إلى حد التدليل ، والتدليل ينتج ما تنتجه القسوة ، فالطفل الذى يجاب إلى كل ما يطلب ، ولا يجد من أبويه حزما وصرامة ، لا بد أن يرفض التعليم ويتمرد على النصيحة ثم يسيئ الأدب فى حق أبويه وذويه ، ويختلط فى طفولته بفاسدى الأخلاق ممن هم أكبر سنا ، ويذهب فى سذاجته إلى تقليدهم حتى يستعصى على ذويه أن يحكموه أو يسوسوه ، وما أسهل انطلاقه بعد هذا إلى الشارع ، وكثيرا ما نرى أطفالا فى العاشرة أو الثانية عشرة ، يجلسون مجتمعين على أنار يز الطرق وفى أفواههم لفائف التبغ وبين أيديهم أوراق اللعب يتشاحنون عليها ويختلفون ، مقلدين الكبار وهم لا يزالون صغارا ، متشبهين بالأغنياء وهم معدمون جائعون ، وألسنتهم خلال هذا وذاك تقذف أقذر الألفاظ وأدنس الشتائم ، وقد تخلصوا من رقابة المسئولين عنهم وألفوا مطاردة البوليس لهم ، وصار التشرد مهنة محببة إليهم .

وفوضى الزواج والطلاق ، لهـا شأن كبير فى تكوين هذا الجيش من المتشردين ، فان سهولة زواج اثنين وثلاث وأربع ، مع عدم القدرة على تكاليف هـــذه البيوت فى أكثر الأحوال ، يترتب عليها كثرة الأولاد ثم العجز عن الانفاق عليهم ، فمن لم تتسع لإعانتهم أرزاق أبيهم كفلهم الشارع وصاروا هائمين مشردين ، هذا عدا ما لا مفر منـه من شقاق وبغضاء بين الإخوة غير الأشقاء خصوصا إذا مات عائلهم وهم صغار، وكان ميراثه لا يسمح بصيانتهم جميعا ؛ أو طغى فريق من الورثة على الفريق الآخر فتركه نهبا للجوع وللضياع .

كما أن سهولة الطـلاق تنتهى بكثير من الأولاد إلى التشرد ، فهم إما أن يتركوا لرعاية أمهم المطلقة ، منهجورين من أبيهم وليس للام من السطوة أو القدرة ما يكفل للاولاد تربية منظمة وسيرا مستقيما ، و إما أن ينزعوا من حضن أمهم ليكونوا تحت رحمـة زوجة جديدة لأبيهم ، وامرأة الأب لا ترحم ولا تطيق أبناء زوجها خصوصا إذا كان لهـا أبناء آخرون ، و يضيع الأطفال بين أمهم وأبيهم ، وقد يكون مصيرهم إلى الشارع كما كان مصير من ذكرنا .

* * *

هذه أمثلة قليلة ممـا نرى على مسرح الحياة .

و إنى أرى لعلاج هذه الحال ، اتباع البرنامج الآتى :

أولا — إقامة منشآت يجمع فيها البوليس هذا الجيش من المشردين والمتسكعين ليقوموا فيها بأى عمل، تظير العناية بهم طعاما ولباسا وسكنا وتعليما ، ثم يبقون تحت الرقابة الحكومية حتى يثبت أنهم أصلحوا وصاروا قادرين على الكسب الشريف ، و إلا قضوا العمر كله على هذه الحال .

ثانيا — اتخاذ الإجراءات الآتية لكيلا يوجد مشردون فى المستقبل :

(ا) عمل قوانين صارمة لمحاكمة آباء وأولياء الأطفال المهملين .

(ب) عمل دعاية واسعة النطاق لحمل الشعب على تكوين عدد وافر من الجمعيات الخيرية ، ولحض الأسر ذات الكرم والنخوة على إيواء وتعهد الأيتام واللقطاء.

وفى الوقت نفسه يجب أن تمضى الحكومة فى إنشاء الملاجىء ولتستعن فى ذلك بضريبة الزكاة التى اقترحها حضرة صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفى باشا .

(ج) إنشاء عيادات سيكولوجية لفحص هؤلاء الأطفال سواء أكانوا بالملاجئ أو فى عهدة جمعيات خيرية أو أسر كريمة ، والمراد من هذا فحص حالة الطفل طبيا ونفسانيا ومعرفة علة فساده ، وكذلك كشف ناحيـة النفع والاستعداد فيه ، كى تشجع و يوجه إليها .

ثالثا — بما أننا قد أوضحنا الضرر الناشئ ، من سهولة الزواج بأثنتين وثلاث وأربع ، ومن سهولة الطلاق أيضا ، وبما أن لهاتين المسألتين حدودهما الشرعية التي لا أستبيح لنفسي الخوض فيها ، فكل ما أطمع فيه — من الناحية الاجتماعية — الإسراع بسن القوانين التي تنظم التعدد والطلاق ولا تبيحهما إلا لضرورة ملجئة ، وبذلك نقلل ما استطعنا عدد الأطفال الذين يحرمون بسبب التعدد والطلاق من عطف الأمومة ومن حسن الرعاية في ظل الوالدين المتحابين .

وكذلك أطمع في فرض ضريبة على كل عازب وعازبة ، والعمل على تخفيض المهور حتى لا يظل الزواج أمرا مرهقا محوفا ، وإذا عم الزواج قل البغاء وقل عدد اللقطاء .

رابعا — تعديل التشريع تعديلا يلزم المحاكم بأن تحكم بثبوت بنوة الطفل لأبيه ما دام قد ارتكب جريمة الزنا مع أمه ، وإلزام الأب بالعناية بهذا الابن غير الشرعي ، الذي لم يكن له ذنب في القدوم على هذه الحياة ، إذ لا يجوز أن يستمتع الناس بإرضاء شهواتهم ثم يتركوا ثمرة هذا المتاع صحية بريئة ، ويسيئوا إلى هذا الوليد المسكين وإلى المجتمع عامة ، ويدخل في هذا الباب تشديد العقوبات على مرتكبي جريمة الزنا رجالا ونساء ، وعدم ترك الحرية للزوج الذي زنت زوجته في أن يسمح بحدها أو لا يسمح .

خامسا — بعد أن يربى الطفل في الملجأ أو في المؤسسة الخيرية أو الحكومية أو بواسطة الأسر المحبة لعمل الخير — تعمل الحكومة على توجيه هؤلاء الأطفال ، كل إلى العمل الذي يتجه فيه ، والذي يلائم مع أنتجه الفحص السيكولوجي من حالته .

وإني أرى إقامة منشآت ومصانع يوزع عليها هؤلاء الأطفال ويظلون مدة معقولة تحت رعاية الحكومة حتى ينضجوا ويستطيعوا الاستقلال بجهودهم وتدبر حياتهم بأنفسهم ، ويدخل في هذه الرعاية بث الأخلاق الفاضلة والتعاليم الدينية في نفوسهم ليتجاوزوا المراحل الأولى من الحياة في مأمن من ضلال الطفولة وطيش الصغر .

* * *

هذا — أولا وأخيرا — في حاجة إلى عمل سريع لإصلاح شريدي اليوم ، ومنع التشرد في المستقبل ، وقد كان هذا الذي تتجه إليه الآمال في وقت الحكومة والهيئات الإصلاحية هو التسريع والتعجيل به .

عبد الحميد إبراهيم صالح